مستقبل الأمة الاسلامية والدين القرآن الكريم

المحاضرة السابعة والثلاثون لفضيلة الشيخ
سليمان المدني

لابد قبل الخوض في بيان الموضوع أن نبدأ بذكر المعنى المقصود من لفظ الأمة الأسلامية ..

الأمة في اللغة تطلق عادة على الجماعة ، فالأمة جماعة من الناس ، ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى في قضية موسى «ع» (ووجد عليه أمة من الناس يسقون...) أي جماعة من الناس يسقون والأمة بهذا المعنى هي كل جماعة تشترك في أمر ما سواء كان لهم رابط يربطهم جميعا أو لم يكن لهم رابط معين . هذا المعنى ليس هو المطلوب به في لفظ الأمة الاسلامية .

الأمة ايضا تطلق في مصطلح فقهاء القوانين الوضعية بمعنى الشعب ، ولذلك يعتبر كل كيان له قيادة سياسية خاصة أمة منفردة ، ومن أجل ذلك يشيع بينهم اصطلاح لفظ الأمم الاوربية أو الاسلامية أو غير ذلك ، وهم انما يقصدون بلفظ الأمم هنا معنى ما يسمى بالشعوب .

الأمة في المصطلح القرآني تقوم على أمر مبدئي ، فليست كل جماعة من الناس مهما كانت العوامل المشتركة بينها تستحق اطلاق لفظ الأمة بموجب المصطلح القرآني ، اذا لم يجمع بين افراد ذلك الكيان مبدأ ما . المبدأ إذاً هو الاساس المقوم لمفهوم الأمة في القرآن الكريم ، ولا ينظر هنا الى وجود كثرة أو قلة في انطباق هذا الوصف ، ولقد وصف الله سبحانه وتعالى ابراهيم «ع» (ان ابراهيم كان أمة قانتا ..) فاطلق عليه لفظ الأمة مع انه فرد واحد ، لأنه كان يومها هو الوحيد الذي يمثل المبدأ الاسلامي ، فالاعتبار بانطباق مفهوم الأمة وجود المبدأ واعتناقه ، ولا فرق بين ان يكون معتنق المبدأ جماعة الحكم أو أقل ، ولا فرق ايضا بعد ان يكون معتنقوا المبدأ تجمعهم روابط تاريخيه وعوامل وراثية ، وتضمهم بيئة وراثية ، أو تتفرق السنتهم وعقولهم وبلدانهم . لفظ الأمة ينطبق متى ما توفر المبدأ الذي يربط بينهم ، وهذا الوصف يأبى الانطباق متى ما انعدم ذلك ، ومن أجل ذلك لا يمكن تحديد تاريخ الأمة بابتداء ظهور نبوة محمد ﷺ ، لأن رسالة محمد ﷺ انما هي آخر الرسالات في هذه الأمة ، وجدت الأمة الاسلامية في أول نبوة ، واستمرت هذه الامة قائمة حتى اليوم «كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين اتوه بغياً بينهم ..»

فالناس كلهم كانوا امة واحدة لم يكن الناس الذين عبر عنهم بلفظ الجمع في البداية إلا رجلاً واحداً وامرأة واحدة ، كان هذا الرجل وهذه المراة يمثلان الأمة ، وتكاثر البشر فوق هذه الارض وابتدأ بالتناسل ، وكان هذا النسل كله يوم كان الناس مرتبطين بالمبدأ يمثلهم ، فلم تكن هناك امم مختلفة لأنه لم توجد هناك مبادىء متباينة ، أو اديان مختلفة ، كان هناك مبدأ واحد ودين واحد الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه» فالعقول عندما تتفاعل ، والافكار عندما تتلاقح ، وعندما يتلاقى الانسان والانسان ، أو يتجادل أو ينظر الى شيء من الاشياء لابد ان يقع بينهم اختلاف في الجوهر أو في التطبيق ، وان كان الجميع يختلف بمبدأ واحد ، وينظران من زاوية واحدة ، ولذلك يحتاجان الى ما يحكم بينهما «فانزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين اوتوه...» الذين انزل عليهم الكتاب هم الذين اختلفوا في الكتاب ، وهذا الاختلاف لم يكن دائما بسبب اختلاف زاوية النظر ، أو بسبب تباين الاجتهاد ، بل في كثير من الأحيان يكون هذا الاختلاف بسبب حب السيطرة ، وبسبب رغبة القيادة والزعامة ، وبسبب عزة النفس من الانصياع ، ولذلك يكون هذا الاختلاف الناتج عن هذه الاسباب والحاصل بسبب هذه الدوافع بغيا .. وهذا ما حصل بالنسبة للامة الواحدة ، فكلما جاء نبي من الانبياء أو رسول من الرسل يجد من الكهنة ومن رجال الدين الرسميين ومن اصحاب المصالح ، وممن لا يعجبهم ان يسير الناس على الطريق الصحيح من ينكر نبوته

ويابى ان يبعث الله نبيا أو رسولا بعد من بعث من الرسل والانبياء ، ويحصل الاختلاف ، وتتشابك الأمة وتوجد المبادىء لأنه متى ما حصل الاختلاف في الأمور الجوهرية لا بد ان تتعدد المبادىء ، فتعددت الأمم بتعدد تلك المبادىء ، ولكن الأمة الاسلامية بقيت موجودة خالدة ببقاء الاسلام دينا حيا خالدا يقوده الانبياء والرسل والأوصياء ، فالأمة الأسلامية تعني التوحيد في اتباع الكتاب الذين لم يختلفوا في الكتاب ، «والذين آمنوا بكل الكتاب» ، «الذين يؤمنون بما انزل اليك ، وما انزل من قبلك ..» ، انه كتاب واحد وان نزل متفرقا على رسل شتى ، وعلى انبياء مختلفين ، ونزل صحائف ، ونزل في الواح ، ونزل الهاما ، لكنه كتاب واحد «والذين لم يختلفوا في الكتاب هم الذين يمثلون الأمة الاسلامية ، الذين آمنوا بالله ورسله . وملائكته وكتبه واليوم الآخر ، واذا كان القرآن الكريم قد عامل الذين اختلفوا في الكتاب من قبلنا معاملة تختلف عن معاملته للمسلمين ، فلم يأمر بإلزامهم بترك ما هم عليه من دين واكتفى بعرض الحجة عليهم فليس ذلك لانهم جزء من الامة الاسلامية ، وانما لانهم يتشبثون بشبهة اتباع الكتاب . هذه الشبهة درات عنهم حد الإلزام ودرات عنهم حد القتل ، ولم يعاملوا كما يعامل المشرك الذي أنكر ضرورة عقله علناً وصراحة . هذا من أجل تعريف الأمة ..

ولعل من هذا التعريف اتضح لنا ايضا ما نقصده من لفظ الدين ، فالدين هو رسالة الله للانسان وهذه الرسالة التي ابتدأت بآدم «ع» عن البشر وختمت بمحمد ﷺ ، فالدين الذي نعنيه هو دين واحد ممتد عبر اجيال البشرية من يوم وصولنا الى

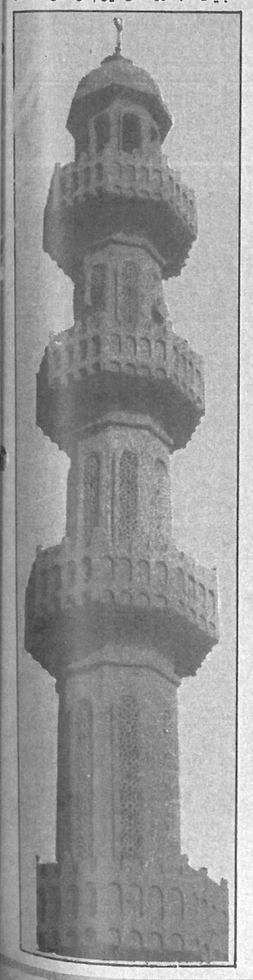

الارض ، ولا شك ان من لا يتبع محمد ﷺ لا يتبع هذا الدين لانه لم يؤمن بكل الانبياء (ع) ، ولم يؤمن بكل الكتب ، والاسلام واحد ، والدين واحد ايضا وليس أكثر من دين واحد ، فما هو مستقبل هذه الأمة وما هو مستقبل هذا الدين ؟

عندما نتصحف القرآن الكريم نجد انه قد بين مستقبل هذه الأمة ، وبين مستقبل هذا الدين على نحو واحد وهو يقول «ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ..» أي نجعلهم قدوة يقتدي بهم ، وقادة يحفظون الايمان به ، ونجعلهم الذين يرثون الارض في الحياة الدنيا ، ويرثون الفردوس الأعلى ، ويبين الله هذا المستقبل ايضا في آية أخرى «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا ، الصالحات ، ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ويبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدونني ولا يشركون بي شيئا ..» هذا الوعد الإلهي الذي اعطاه الله سبحانه وتعالى لجماعة المسلمين ـ للأمة الأسلامية ـ لم يكن وعدا مطلقا ، أي لم يكن على نحو الوعد المجرد الذي يلزم تحقيقه على غيره ، وانما جاءت بالصيغة عهد من الله سبحانه وتعالى فهو معاهدة بين الله وبين هذه الأمة ، فهناك شروط لتحقيق هذا الوعد تلتزم بها الأمة حتى يكون الوفاء بالنسبة اليه سبحانه لازما ، أما اذا أخلت الأمة بهذه الشروط فهي لا تستحق ان يوفي لها بالعهد ، فالوعد اذن مشروط ومعلق ، فما هي شروط هذا الوعد ؟

«وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات» ، اذن الوعد معلق على شرطين :

- اولا الايمان : وعندما نقول الايمان لا نعني به مجرد اعلان كلمة الاخلاص في ظاهر اللسان ، فالايمان قبل كل شيء هو تحول الناس بوجه الارادة ، ويحدد الطريق بالعمل الصالح اي بالسلوك الانساني الذي يشترط الله ما يشترط الوفاء بهذا الوعد ، فالايمان بالله اول ما يعنيه رفض ما سوى الله ، وحتى كلمة الاعلان بالدخول على الاسلام صيغت على اساس الرفض ثم الاذعان ، وكل الآيات القرآنية أو معظمها عندما تتكلم على الايمان ، تقدم الكفر بما سوى الله «ومن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ..» ..

الفكرة التي يرتئيها الانسان تكون مخالفة لضرورة العقل ، أو لطريق الكتاب أو لطريق ما جاء به الانبياء ، ويصر عليها ويدعوا اليها فتكون صنماً له ، يقول الصادق «ليس بين الانسان والكفر الا ان يسمى الحصاة نواة ، والنواة حصاة ، ثم يدين بذلك ويدعوا الناس اليه» .. فالنظام الذي يتبناه الانسان من عند غير الله ويدين به ويراه نظام عدل وقانون حق ، وهو من وضع بشر ، فهو يعبد الطاغوت بقبوله هذا القانون الذي لم ينزل من الله سبحانه وتعالى ، ولقد ذم الله قوما يضعون لأنفسهم الأنظمة والقوانين ، واذا دعوا الى كتاب الله يصرون الى التحاكم الى تلك الأنظمة والقوانين ، فقال انهم يعبدون الطاغوت «ألم ترى الى الذين يزعمون بانهم آمنوا بما أنزل اليك وما انزل من قبلك ، يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا ان يكفروا به » فسمى ايمانهم زعما ، ولم يعتبر كلامهم اظهارا لحقيقة ما في الوجدان حتى ينطبق عليهم الايمان ، ويزعمون انهم آمنوا ولم يكونوا صادقين في ايمانهم لأن اصرارهم على ما وضعوا لأنفسهم من القوانين والأنظمة ورفضهم الرجوع الى ما أنزل الله سبحانه وتعالى هو احتكام الى الطاغوت ، فلماذا يكون الاحتكام الى القوانين التي لم تكن من عند الله ، احتكاما للطاغوت ، لأن من أصغى الى ناطق فقد عبده ، فإن كان الناطق ينطق عن الله فقد عبد الله ، وان كان الناطق ينطق عن الشيطان فقد عبد الشيطان» .

فالايمان بالله اول ما يعني الكفر بالطاغوت. وكل شيء لا يرجع في النهاية الى الله فهو طاغوت ، وليس للفظ الطاغوت معنى معينا وانما هو لفظ عام يعني كل ما سوى الله ، فكل ما يتخذه الانسان حينما يقبله ، ويدعوا اليه سواء كان شهوة أو فكرة أو قانونا وكان ذلك لا يعود الى الله سبحانه وتعالى فهو طاغوت ، حتى ولو اتخذ نبيا من الانبياء أو وصيا من الأوصياء فقدّسه الى حد لا ينبغي لبشر ان يقدس به فيعتبر ذلك الانسان من عبدة الطاغوت ، لان هذا الامر اوجده بنفسه وقدّسه ..

والايمان يلزم ان يكون الولاء فيه خالصا لله ، والولاء انواع ، فاحب نفس و ما تفرع منها من اولاد وأحب ما يعود اليها من زوجات وأموال وأخوان ، وأحب ما انحدرت منه نفسي وذاتي من أهل وعشيرة ، لكن هذا الحب اذا تعارض مع كلمة الله ، ففي أي جانب ناخذ ؟ هل نأخذ كلمة الله أو نأخذ انفسنا واولادنا وأموالنا وعشيرتنا ؟ .. اختيار صعب في قضية الايمان ، فإذا كان الانسان لم يخلص الولاء لله ، واذا كانت الأمة غالبيتها لا تخلص الولاء لله حتى لو وجد فيها افراد يخلصون الولاء لله ولكنها في غالبيتها لا تخلص الولاء لله لا تعتبر قد حققت شرط الايمان المطلوب « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباؤهم أو ابناؤهم أو اخوانهم أو عشيرتهم » فقضية الايمان ليست مفصولة عن قضية الولاء ، حتى الولاء القائم بالدعوة ، وللرسول ﷺ مرتبطا بالايمان «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه ، ويكون ولدى احب اليه من ولده ، فإذن الولاء شرط اساسي في جوهر الايمان ، والولاء لله تتفرع منه ايضا امور كثيرة كلها دخيلة في تحقيق جوهر الايمان ، والمطلوب شرط موضوعي في تحقيق هذا العقد يجب ان يكون الولاء سائدا بين ابناء الأمة الاسلامية .. «المؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض ..» والفرق بين هذا الولاء الذي يسود بين افراد الجماعة وبين ولاء الجماعة لله هو ان الولاء بين افراد الجماعة فيه معنى السيطرة والهيمنة ، والولاء بين الجماعة وبين الله فيه معنى الخضوع والاعتراف بالربوبية والعبودية المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر . فإذا الولاء السائد بين الجماعة يعطي كل فرد من افرادها الحق في ردع الفرد الآخر عند الخروج عن طاعة الله ، لأن هذا الولاء في واقعه ليس الا فرعا من الولاء لله الذي كتب عهدا على المؤمن ان يتحلى به ، وان لا يقف مع من يخالف احكام الله وانما عليه ان يأمره بالمعروف (أي باتباع احكام الله) وينهاه عن المنكر (أي ترك ما نهى الله عنه) والولاء لله يقتضي ان لا يتخذ المؤمن كفرد عدوا من أعداء الله وليا له ، وان لا تتخذ الجماعة المؤمنة عدوا من اعداء الله والمؤمنون .. ففي قضية ابليس وانه عدو الله نهانا عن ولائه وطاعته ، وفي القضية الاسلامية ككل نهانا ان نوالي من حارب الدين ، ومن حاربها كامة اسلامية ، «لا يتخذ المؤمنون الكافرين اولياء من دون المؤمنين ..» فاذا والت الأمة أو والى فرد من الأمة عدوا من أعداء المؤمنين سواء كان ذلك العدو فردا أو جماعة ، فإنه انما يشهد على نفسه بعدم صدقه في تحقيق الايمان المطلوب وليس معنى ذلك انه يلزم المسلمين معاداتهم لغير المسلمين وانما يلزمهم ان لا يوالوا ولا يفرقوا ولا يضروا من حاربهم كمسلمين ، أما اولئك الذين لم يحاربوا المسلمين كمسلمين سواء اكانوا افرادا او جماعات ، فإن الله لا ينهى عباده المؤمنين من التعاون معهم على تحقيق الخير ، «لا ينهاكم الله عن الذين لم يحاربوكم في الدين ، ولم يظاهروا عليكم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ولكن ينهاكم عن الذين اتخذوا دينكم هزوا وظاهروا عليكم..»

البقية في العدد القادم